ـ « قراوا لي اليوم في الجريدة ان امراة لم تنجب طوال عشرة اعـوام ، انفك عنهـا الرصد ببركة الولي عبد العاطي ، وحملت . جاؤوا بها الى الجريدة وصوروها ، وها هي صورتها ، لها جديلة طويلة ، وهي تضحك » .

قلت :

ـ « خانت زوجها » .

ـ « استغفر الله ! انت لا تطاق » .

ـ « شيخك ليس الا كتلة من الفطر » .

ـ « اعوذ بالله . . . لا اريد ان اسمعك » .

وعاد ، يدب بخطواته الحافية ، الى الفرن ليخبز دفعة جديدة ، فيما كنت احس بـانني تغيرت بصورة لا استطيع ان اتجاهلها لحظة واحدة . ما الذي حدث ؟ شيء ما انكسر في اعماقي بلا ريب ، وقد حدث ذلك بسرعة ، وكأنما على الرغم مني . ربما صارت الامور امامي اكثر قسوة ، ولكنها بلا شك اكثر وضوحا وصفاء . وكان ذلك يبتعث في راحـة غريبة ومفاجئة ، واخذت اتساءل ان كان الشيء ذاته قد حدث لابي قيس ، وكنت مـا زلت اسمع ضحكته مثل قرقرة قربة ماء ، واحس كفه القوية تخبط على كتفي . آه ايها الليل ، يا ملك المعجزات الحقيقي ! . ان كان هناك ما هو معجز في قبر الطين فهو انـه يجتذب الخاسرين ، وحوله يكتشفون شراكتهم في هذا العمر المحطم ، ثم يمضون تاركينه وراء ظهورهم وكأنه لم يكن . اكان من الممكـن ، ابدا ، ان اكتشف الولي على تلـك الصورة الفريدة ؟ ان نقتحمه معا ، من خلال العتم والصمت ، ونسبر غوره حتى القرار؟ أكان حتما علينا يا ابا قيس ان نزحف كأثواب مهترئة يجررها حبـل من الغيب ، لننشر ذلنا وكساحنا امام فقاعة فطر ؟ عددت ثلاثة ارغفة ووضعت ثمنهـا في الدرج فخشت مصدرة صليل قيد ، ووراء ظهري اصطفقت ارغفة العجين على بلاط الفرن حين قذفها حمدان ، واخذت النار تهرج مثل ريح حبيسة . كنت احسب ان المعجـزات تتدلى من السماء مثلما يتدلى خطاف ، نعلق عليه اعمارنا كما تعلق القمصان ، ولكن اصابعي ما زالت تغوص في ذلك الخشب الطري الـذي انبثق في غور العتمة ، ثمرة مـن الطيش وقنديلا مطفأ في ليالي البائسين المسحوقين المنكفئين على وجوههـم واللاعقين جراحهم بالسكاكين . أما هي فقد خانت زوجها ، وعلقت عارها عـلى مشجب الولي النائم الى الابد تحت قبضة طين لم تعد تصلح الا ليتكيء عليها عكاز رجل اعمى . عددت رغيفين واسقطت ثمنهما في الدرج ، وخفت صوت النار ، فيما اخذ حمدان يغسل كفيه . وجاءت خطوات ابي قيس ، وانتابني فرح صغير لانني تعرفت الى صوتها ، وقال : « كيف انت اليوم يا عبد العاطي ؟ » ووراءي كفت يدا حمدان عن الاغتسال هنيهة ، فـلا شك ان التسمية حيرته ، وجاء الصمت مثلما يجيء الاستفهام ، ليوقف تدفـق الامور لحظة ، ويعيد ترتيبهـا من جديد . « جئت اسألك ان كنت تريد الذهاب مرة اخرى الليلة » انه يرفع صوته قليلا فيبدو وكأنه يخاطب رجلا يقف على بعد منه . وهززت راسي مجتارا متسائلا وانا ارد عن وجهي ضحكة كانت تتسلقه من الداخـل . وعاد يقول : « نذهب هذه المرة لنعترف بفضله ، لقد اجترح المعجزة » . عددت ستة ارغفة ، وتركت ثمنهـا يسقط قطعة بطيئة وراء قطعة بطيئة في الدرج ، ولا شك ان ابا قيس لم يكن ليسمـع اصواتها وهي تصطدم بالقطع المعدنية الاخرى . وتصورت للحظة كيف ستبدو له وكأنها تسقط في حفرة بلا قرار ، وتظل تهوي في الفراغ الى الابد : « لقد اجتـرح المعجزة ، وهي معجزة غريبة حقا » وأدرت وجهي نحوه ، فهمس « سألت عنك اليوم » . كان شيء ما يولد في تلك المسافة المتوترة والممتدة بين عالمينا ، وانا استشعر ذلك بصورة لا يمكن تفسيرها ، ومضى : « قالوا لي انك من طيرة حيفا » وسكت قليلا : « وانا ايضـا من طيرة حيفا » . اسقطت قطعة النقد الاخيرة من بين اصابعي الى الدرج ، فصدر رنين